العنصر العربي (١)

يمثل مؤتمركم الكريم رجالات العلم والشرع ، في جزء غير قليل من بلاد العرب ، فمن حقه اذن ان يسود جوه حرية من الفكر ، وحرية من الرأي ، يعبر عنهما صاحبهما بصراحة في القول ، لا غمغمة معها ولا جمجمة ، واي قيمة تبقى للعلم بله القانون والشريعة ، اذا جبن المرء عن عقيدته ، يعالن بها محضة مخلصة .

هذا ما جعل الخطباء — في هذا الموسم القضائي العربي — يدلي كل منهم بما يبدو له انه الحق وهذا ما يحملني على ان ألقي كلمتي هذه . ما اعددتها من قبل ، ولكني استمددتها مما قاله بعضهم ، فهي كلمة اوحتها كلمات ، تتناول كلمتي هذه موضوعات ثلاثة :

العنصر العربي — القضاء اللبناني — الشرع الاسلامي .

١ — العنصر العربي : أطلق على هذا المؤتمر « المؤتمر العربي للمحامين » « ومؤتمر المحامين العرب » وملأت اجواء هذه القاعة : قاعة المحاضرات وجنباتها ، كلمات العرب ، والعروبة ، والقومية العربية ، وكل ما ينطوي تحت ذلك ويتصل به ، من امثال هذه الألفاظ والتعبيرات .

وسمعت خلال ذلك تمتمات وهمسات ، تتردد على الشفاه وتلقى في الآذان ، الفينة بعد الفينة ، يتساءل اصحابها عما اذا كانت هذه الشعوب التي تتوطن هذه الأقطار المترامية الأطراف ، ما بين المحيط الهندي وبحر الظلمات ، هي حقيقة أمة عربية والمعدة بالمعنى الصحيح الذي يفهم من قولنا « أمة » .

ولم اسمع من الخطباء والمحاضرين ، من عني بهذا الموضوع او تعرض له ، والميدان ميدانه ، اذ هو بحث اجتماعي ، يتصل بالأبحاث القانونية ، بأوثق الأسباب ، بل هو البحث الذي تقوم على صحته وصدقه سياسة هذا المؤتمر ، وما يرمي اليه من اهداف وغايات .

---

(١) ملخص المحاضرة التي ألقيت في مؤتمر المحامين المعقود بدمشق في ١٢ آب سنة ١٩٦٩ وهو لمحات قد نعود فنتوسع فيها يوماً من الأيام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لذلك رأيت ان استهل كلمتي بهذا السؤال :

هل نحن ابناء هذه الأقطار التي تتكلم العربية ، عرب حقاً ؟ ام نحن ابناء لغة نطقنا بها فانتسبنا اليها لساناً لا عنصراً ، فبنوتنا في العروبة تنتهي عند هذه اللغة ، لا تتجاوزها الى البنوة القومية ، دع بنوة العنصر والدم ؛ ونحن — اقصى امرنا — انا ابناء اللغة العربية ، وبلادنا ، على ما يقول بعضهم الى اليوم — بلاد العربية — على الاضافة وحذف المضاف اليه : اي بلاد اللغة العربية — لا البلاد العربية — على النعت والصفة .

اذا قلنا باديء الرأي ، ان صلتنا بالعرب الأولين تقف عند اللغة ، فأي شعب من الشعوب المتحضرة لم تكن اللغة هي العامل الأول في تكوينه ، واي شعب يستطيع ان يزعم لأبنائه انهم ينحدرون من اصل واحد جامع ، ويجري في عروقهم دم خالص محض ، لا هجنة فيه ولا فيه قرف .

لا! ليس في أمم التاريخ الحاضرة حتى ولا الغابرة ، أمة مهما بلغ من عنجهيتها وصلابتها ، ومن اعتدادها بنسبها واصلها ، ليس من أمة لها ان تقول صادقة ، انها ليست في جمهرتها الكبرى من فعل لغتها وتكوينها .

ولكم في التاريخ من محاولات ، عجزت عن ان تفرق بين الدخيل والأصيل ، بل قد يغلب الدخلاء ، الأصلاء على امرهم في قلب بلادهم ، وفي اخص مستخصاتهم ، حتى اذا اشتركا في اللغة عادا وهم شعب واحد ، واصلهم — على مر الأيام وزعمهم — جميع والأمثال على هذا ، ولا سيما في أوروبة اكثر من ان تعد بالعشرات [1] .

فاللغة في الحق والواقع ، هي التي تصير الأفراد أمة واحدة ، والناس للغتهم ، اكثر مما هم لآبائهم .

---

(١) أتستطيع أن تفرق بين الغوليين (Gaules) سكان فرنسا الأصليين وبين الفرنك (Francs) — واليهم ينتسب الفرنسيس — وهم قبيلة جرمانية وكذلك القيزيكوت [القوط الغربيون] Wtsigotts والهن Huns ؟ أو تستطيع أن تفرق بين النورمانيين والسكسونيين في انكلترة ؟ إلى كثير غيرهم من الشعوب المختلطة المتمازجة في غيرها من البلاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقديماً قال النبي العربي العظيم : ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، وانما هو اللسان ، من تكلم العربية فهو عربي .

واذا كانت اللغة وحدها هي التي سيّرت كثيراً من الجماعات شعباً واحداً ، فنحن العرب في هذه الأقطار — التي نعمرها — أمة واحدة بشيء آخر غير اللغة . نحن أمة بالعنصر ، بل بكثير من الدم الواحد ، وبالتاريخ ، وبالشريعة والحضارة ، وبسائر الخصائص التي تتألف منها الأمة الواحدة من اماني واهداف وآلام وآمال في غابرنا وحاضرنا ومستقبلنا ، ولا نريد ان نزعم ان هذه الأمة العربية هي بأسرها وفي اصلها ، من عنصر واحد ، ودم واحد ، فهذا ما نقينا ان يقع مثله لشعب من الشعوب المتحضرة ، وانما نقول ان العنصر والدم العربيين ، هما الغالبان في هذه الأمة ، غلبة ما يتوفر لأمة من الأمم مثلها الا في الندرى ، وأخرى : هي ان الذين استعربوا فعُدُّوا في الأمة العربية ، ليسوا غرباء عنها كل الغربة ، بل كانوا في سوادهم الأعظم من اخواننا وابناء عمومتنا ، في العرق ، فسهل بذلك اندماجهم فينا اندماجاً سريعاً كاملاً ، لم تقو السنون والنكبات على تمزيقه وتفكيكه ، ولا القضاء عليه .

وكلمة بعد ، في وحدة العنصر وغلبة الدم ، اذا لم يتسع الوقت للإفاضة فيها ، فلا يصح ان نغفلها فلا نذكرها ، ذلك انه قام في مصر ولبنان في فترة من الزمان ، من يقول بفرعونية مصر ، وبفنيقية لبنان .

أما مصر ، فحسب احدنا ان يرجع الى ما قاله الكندي في « أخبار القضاة » والقلقشندي في « صبح الأعشى » وهما مؤرخان مصريان ؛ فلقد ذكرا القبائل العربية التي نزلت مصر قبيلة قبيلة ، وهي تعد بالمئات ، يكفي بعضها ان يلد في ثلاثة عشر قرناً ما يزيد على تسعة اعشار المصريين اليوم .

ولبنان احتل العرب كثيراً من جوانبه قبل الإسلام « وعشعشوا — على تعبير الأب لامنس — في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس الى جبيل » وملكوا الجبل الشرقي والبقاع ، ثم كانت اليه في الاسلام هجرتان عربيتان : هجرة نصرانية من مشارف الشام ، وهجرة اسلامية من رياض العراق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولبنان عربي ببيوتاته القديمة العريقة ، اسمائهم واحزابهم [١] وعاداتهم ومعايشهم وسائر ما يتصل بحياتهم الأصلية ، وليس ادل على غلبة العروبة في لبنان ، من ان اللغة السريانية وهي لغة دينية عند قسم كبير فيه ، تتعلم تعلماً ، وليس فيهم من يحسنها تلقياً ، على قداسة هذه اللغة على ما قلنا ، وعلى تفرق القرى اللبنانية وانعزال القسم الأكبر منها في رؤوس الجبال .

ودمشق المدينة العربية الجبارة ، لا يزال على ابوابها ثلاث قرى : معلولا ، وجبعدين ، وبخعة ، يتكلم اهلها السريانية مسلمهم ونصرانيهم على السواء .

وفي هذا الدليل الذي لا يمارى فيه ، على ان هؤلاء من سلالة سريانية ، احتفظوا بلغتهم حتى بعد اسلامهم ، ولو كان اللبنانيون سريان او جمهرتهم من بقايا السريان ، لاحتفظوا بلغتهم السريانية ، فهم احق من غيرهم بها .

فلبنان ليس ذا وجه عربي ، فالوجه يتقلب ويتلون ، ولكن لبنان عربي الوجه ، والدم ، والجنان [٢] .

المصلحة المشتركة : وبين الأقطار العربية مصلحة مشتركة ، وعلاقات مترددة مشتبكة ، وهذه العلاقات تتناول مناحي الحياة جميعها : المادية والمعنوية ، فليس من هذه الأقطار العربية قطر يستغني عن أخيه . والمصالح المشتركة المستقرة ، هي من جملة العوامل الرئيسية في تكوين الأمة الواحدة ، وتوثيق عراها .

(١) قل أن تجد في لبنان أسرة مشهورة نسبها غير عربي ، واسمها غير عربي . وقد بلغ الأمر بكثير منهم ، أن استعملوا أداة التعريف وأدخلوها حتى على الأسماء الأعجمية جرياً على العادة العربية البدوية . والأسماء القليلة غير العربية عندهم ، أكثرها أسماء أنبياء وقديسين ، تسموا بها تبركاً ، فهي لا تنفي عروبة ، ولا تثبت عجمة .

أما أحزابهم فعربية محضة ، كان أشهرها القيسية واليمنية : وكانت غالبة حتى في لبنان «الأقدم» العاقورة وما إليها . وهي المنطقة الشمالية من لبنان الحاضر ، والتي كان يطلق عليها وحدها اسم « لبنان » قبل وضعه الأخير ، وقبل التقسيمات الادارية العثمانية الحديثة .

(٢) هذه العبارة غضب لها القائلون « بالوجه العربي » في لبنان . بل القائلون : ان لبنان [ذوو وجه عربي] فهاجوا علينا جرائدهم فهاجمتنا بما ينم عن أدبهم وأدبها ... وقد تجنوا علينا بهذه القضية سامحهم الله . فنحن ليس إياهم خاطبنا فيغضبوا . وإنما خاطبنا ذوي القلوب العربية ، والعقيدة القومية ، و « ذوو الوجوه » ليسوا منهم ، فيساق الكلام إليهم ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان الظلم اذا اشتد في مصر ، لجأ كثير من أبنائه الى الشام ساحله وداخله ، واذا ضيم الشام ، فزع بنوه الى مصر ، كان ذلك منذ أيام محمد علي ، فاسماعيل ، فثورة عرابي ، فأيام عبد الحميد فالاحتلال الأجنبي . وكانت صحافة الشام ولا سيما الجنان ، والجنة ، والجنينة [1] متنفساً لنفر من المصريين ، كما كانت الصحافة المصرية ولا تزال ، ميداناً فسيحاً لأقلام الشاميين ، ولا سيما السوريين واللبنانيين منهم .

ومصر ، مدينة في بعض نهضتها الى رجالات العلم والأدب والفن من أهل الشام ، وبخاصة لبنان ، وقد عاون هؤلاء الأعلام النهضة المصرية ، وهم مدينون لمصر بشهرتهم وتخليد ذكرهم . فمن أين لهم أن يذيع صيتهم لو أنهم انزووا في جبالهم وقبعوا في قراهم . أي شيء كان يكون البستاني واليازجي والشميل وزيدان وضرو ف ، وغيرهم .. لو لم يهبطوا بيروت وهي يومئذ من سورية لا من لبنان حتى اذا ضاقت بهم قصدوا الى مصر ، فطارت لهم من هناك تلك الشهرة الخالدة ، وأدوا فيها للعالم العربي تلك الخدمة الصادقة .

وحركاتنا السياسية ! ألم تكن في بادئ أمرها تقليداً لمصر ؟ من سياسة سلبية ، الى سياسة ايجابية ، الى بعثات ترسل ، واسماء تطلق ، تتلمذنا فيها على مصطفى كامل ، ثم على سعد من بعده .

وأي نكبة حلت بأحد القطرين ، الشامي والمصري ، إلا حل بالقطر الثاني مثلها ، حتى كاد يكون أمرهما واحداً ، ومصيرهما واحداً في الاسلام وقبل الاسلام .

وأقف هنا ولا أزيد في تعداد العلاقات والرابطات .

فالأقطار العربية ، وخاصة : مصر ، والعراق ، والشام ، — بهذا الذي أصبحوا يسمونه سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن واحدة بلغتها ، واحدة بعنصرها ، واحدة بمصالحها . واحدة بماضيها البعيد ، وحاضرها العتيد ، ومستقبلها الأكيد .

عارف النكدي

---

(١) الجنان ، والجنة ، والجنينة : صحف كان يصدرها في بيروت المعلم بطرس البستاني اللبناني ، أولها شهرية ، والثانية أسبوعية ، والثالثة يومية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net